وقال أبو يعلى البَرَداني: رأيتُه في المنام فقلت له: ما فعلَ الله بك؟ فقال وهو يعدُّ بأصابعه: غَفَر لي، ورَحِمني، ورفع منزلتي. فقلت: بالعلم؟ فقال لي: بالصدق. وأفطر يوم جنازته خلقٌ كثيرٌ؛ لأنَّ الحرَّ كان شديداً.

ولمَّا غلب البساسيريُّ على بغداد ولَّاه القضاء، فاستأذن أبا عبد الله الدامغاني [ثم][1] دخل عليه وأخبره، واستأذنه فأذِنَ له، وكان في اعتقال البساسيري، وكان فيمن بايع المستنصر صاحب مصر.

قال الحافظ ابن عساكر[2]: سمعتُ أبا غالب بن أبي علي بن البناء الحنبلي يقول: لمَّا مات أبو يعلى ذهبتُ مع أبي إلى داره بباب المراتب، فلقِيَنا أبو محمد التميمي الفقيه الحنبلي، فقال: إلى أين؟ فقال أبي: مات القاضي أبو يعلى. فقال أبو محمد: لا رَحِمَه الله، فقد بالَ على الحنابلة ـ يعني البولةَ الكبيرة ـ لا تُغسل إلى يوم القيامة ـ يعني المقالة في التشبيه ـ.

السنة التاسعة والخمسون والأربع مئة

فيها في المُحرَّم ورد ألب أرسلان إلى الريِّ من نيسابور.

وفيه بعث صاحب مصر إلى محمود بن الزَّوقلية المتغلِّب على حلب يُطالبه بحملِ مالٍ إلى خزانته، وبغزوِ الروم الذين هم في مجاورتِه، وصرفِ سُرْخاب ومن معه من الغُزِّ إن كان على طاعته، فأجاب: يا بُنيَّ قد ألزمتُ على أخذ حلبَ من عمي أموالاً اقترضها، وأنا مطالَبٌ بها، وليس في يدي ما أقضيها، فضلاً عما أصرفه في غيره، فإذا قضيتُ ديوني، واستقام أمري، حملتُ وخدمتُ، وأما الرومُ فقد هادنتُهم مدةً، وأعطيتُهم ولدي رهينةً على مالٍ اقترضتُه منهم، فلا سبيل إلى محاربتهم حتى أوفيَهم المال، وأُخلِّصَ ولدي، وتنقضي الهدنة، وأما ابنُ خان[3] والغُزُّ الذين معه فيَدُهم فوق

(١) ما بين حاصرتين زيادة يقتضيها السياق.

(٢) لم أقف على هذه الترجمة في تاريخ دمشق ولا في أيٍّ من مصنفات ابن عساكر!.

(٣) في النجوم الزاهرة ٥/ ٧٩ : خاقان.

يدي، وإنما استخدمتُهم مصانعةً لهم، وكفًّا لفسادهم، فإن رأيتَ صرْفَهم فلتُنفِذْ إليهم مَنْ هو أقوى عليهم مني، وأنا أُساعده، فلمَّا وصل الجواب كوتِبَ بدرٌ الجمالي أميرُ الجيوش المقيم بدمشق، بأن ابن الزَّوقلية قد خلع الطاعة، وأنه مال إلى الجهة العراقية، فنسيرُ إليه ونقاتِلُه، فكتب بدرٌ إلى عطية وهو بالرحبة أن يسير إلى حلب، ووعده المساعدة، فسار ومعه [من][1] بني كلاب عِدَّةٌ قويةٌ إلى حماة، وعلم محمود، فخرج من حلب، واستصحب معه الرجال والغُزَّ إلى بني كلاب، فنزل عليهم؛ لئلا يذهبَ الباقون إلى عطية ويُحِسَّ بهم، ولم يبقَ إلا الحرب، فدخل القاضي ابنُ عمار المقيم بطرابلس بينهم، وأصلح الحال، واستحلف محمود وعطية لصاحب مصر، وحلف كلُّ واحد منهما لصاحبه على أنَّ الرحبةَ وبالِس والرقة والبلاد الفراتية لعطية، وحلبَ لمحمود، وسار عطيةُ إلى دمشق، فأقام في خدمة صاحب مصر، وبلغ مسلمَ بنَ قريش، فسار إلى الرحبة فملكها بمواطأةٍ من أهلها؛ لقُبحِ ما عاملهم به عطيةُ، وأقام مسلمٌ الخطبةَ بها للخليفة، ثم للسلطان، ثم لنفسه.

وتُوفِّي ابنُ البساسيري يوم الأحد بدمشق، واتُّهِمَت به مغنيةٌ كانت له، وأولَدَها ولداً، وأنها وافقَتْ فَرَّاشه وطبَّاخه على سمِّه، فسمُّوه، فصلبهم أميرُ الجيوش ورماهم بالنُّشَّاب، واتَّفق موت أخيه في هذا الشهر، وكان مقيماً بمصر، فتنمَّر[2] عليه ناصر الدولة ابن حمدان، فهرب منه قاصداً دمشق، فواصل السير خوفاً من اتِّباعه، فلحقه من المشقة ما كان سبباً لموته بعد وصوله إلى دمشق بستة أيام.

وفي يوم الاثنين ثامن عشر صفر ورد العميد أبو سعد المستوفي من باب السلطان ومعه هدية للخليفة؛ خيلٌ وثيابٌ ومصحفٌ وجوهرٌ وكتابٌ، ففرح أهل بغداد بقدومه؛ لأنه كان عفيفاً عن المال والحريم، أقام السياسة، وأمَّن الناس.

وفي صفر قصد أبو عبد الله بن أبي هاشم مكة، وقتل من بني سليمان جماعةً، وهرب حمزة بن وهاش أميرُها، وخطب ابنُ أبي هاشم لصاحب مصر والصُّليحي.

---

(١) ما بين حاصرتين زيادة يقتضيها السياق.

(٢) تنمَّر: تنكَّر. الصحاح (نمر).

وفي ربيع الآخر ورد الخبرُ بمسير أرسلان خاتون زوجة الخليفة إلى بغداد ومعها تواقيع بجميع ما التمسه القائم من الإقطاعات وغيرها، وأنَّ ألب أرسلان توجَّه إلى أصبهان بنية المُضيِّ إلى كرمان.

وفي غُرَّة جمادى الأولى دخلت السيدة أرسلان خاتون إلى بغداد مع الخادم، وخرج الناسُ لتلقِّيها، ومعهم الوزير ابنُ جَهير على فرسخ من بغداد، ودعا لها وهو على ظهر فرسه، ودخلت دارها، وحضر العميد بيت النُّوبة، وقُرئت الكتبُ التي كانت معها، وتشتمل على الطاعة والتصرُّف على قوانين الخدمة والإجابة إلى جميع ما التمس الخليفة، فكان فيها كتابٌ إلى ابن جَهير، عنوانه: الوزيرُ الأجَلُّ، شرفُ الوزراء، فخرُ الدولة. وقبل هذا كان يكتب إليه: الرئيس الأجَلّ. وعزم العميد على العود إلى باب السلطان، فسار يوم الاثنين السابع والعشرين من جمادى الآخرة، وبنى في هذه المدة التي أقام بها ببغداد على قبر أبي حنيفة رضي الله عنه قُبَّةً عاليةً عظيمةً، وأنفق عليها أموالاً كثيرةً، وعمل لها ملبناً وعلَّاه على مثال قبور آل أبي طالب في المشاهد، وعمل بين يديه رواقاً وصحناً، وجعله مشهداً كبيراً، وعمل بإزائه مدرسةً لأصحاب أبي حنيفة، ورتب لهم مدرساً، وأوقف عليهم ضيعةً يُصرف مغلُّها إليهم، وفعل في ذلك فِعْلةً حسنةً، ولُقِّب: العميد شرف الملك، ولمَّا انتهت دخل ابن البياضي الشاعر لزيارة المشهد، فقال ارتجالاً: [من الطويل]

ألم ترَ أنَّ العلمَ كان مُبدَّداً ... فجمَّعَهُ هذا الموسَّدُ في المهدِ[1]

كذلِكَ كانتْ هذهِ الأرضُ ميتةً ... فأنشرَها جودُ العميدِ أبي سعدِ

[قلت: وقد ذكر علي بن عقيل في كتابه المسمَّى بـ «الفنون» في هذا المعنى فصلاً، فقال: وُضِعَ أساسُ مسجدٍ بين ضريح أبي حنيفة في سنة ستٍّ وثلاثين وأربع مئة وأنا ابنُ خمس سنين، وكان المنفقُ عليه رجلٌ تركيٌّ قدم حاجًّا، ثم قدم أبو سعد المستوفي ـ وكان حنفياً متعصِّباً ـ وكان قبرُ أبي حنيفة تحت سقفٍ عَمِله بعضُ أُمراء التركمان،

(١) جاء البيت في المنتظم ١٦/ ١٠٠ ـ والخبر فيه بنحوه ـ وفي البداية والنهاية ١٢/ ٩٥ هكذا:

ألم ترَ أنَّ العلمَ كان مُضيَّعاً ... فجمَّعهُ هذا المُغيَّبُ في اللَّحدِ

وكان قبله خَرْبُشت[1]، فلمَّا دخل الغُزُّ بغداد وجاء شرفُ الملك إلى بغداد عزم على بناء القُبَّة، فهدم جميع أبنية المسجد وما يحيط بالقبر، وبنى هذا المشهد، وجاء بالقطَّاعين والمهندسين، وابتاع دُوراً من جوار المشهد وحفر أساس القُبَّة، وكانوا يطلبون الأرض الصلبة، فلم يبلغوا إليها حتى حفروا سبعة عشر ذراعاً، فخرج من هذا الحفر عظامُ الأموات الذين كانوا يطلبون جوار النعمان أربع مئة عين، ونُقِلت جميعُها إلى بقعةٍ كانت لقوم ملكاً، فحفروا فيها ودفنوها، وخرج في ذلك الحَفْر ـ يعني الأساس ـ شخصٌ منتظم العظام له ريحٌ كريح الكافور. وقال ابن عقيل: فقلت: وما يدريكم لعلَّ النعمان خرجت عظامه في هذه العظام وبقيت القبة فارغة، وبلغ شرفَ الملك، وكانت العمارة في سنة تسعٍ وخمسين وأربع مئة، وساجُه وأبوابُه غصبٌ من بعض بِيَع سامراء. قلت: قد كان ابنُ عقيل من أكبر المتعصِّبين على أبي حنيفة وأصحابه. وقوله: وأنا ابن خمس سنين، وهل يُدرك هذا الإدراكَ ابنُ عشرين سنة؟!. وذكر ابن العميد أنه جمع الصنَّاع والمهندسين وغرم على القُبَّة ألوفاً، وكيف يخفى عليهم موضع الضريح؟ ثم أوهم أن الشخص الذي فاحت منه رائحة الكافور هو الإمام. وما مقصودُه إلا الإبهام. وقوله: غصبوا الأبواب والساج من بعض البِيَع، فيحتمل أن أهل تلك البيع نقضوا العهد أو كانت خراباً، ولو صحَّت دعواه فإن الغاصب عند أبي حنيفة يملك الساحة؛ فإنه لا معتبر في الدنيا بالعظام، وإنما الاعتبار بالأرواح، وهي في دار السلام، والله سبحانه أعلم].

وفي شعبان وردت الأخبار أن ألب أرسلان لمَّا توسَّط بلادَ كرمان طلب أخاه الأمير قاروت بك، وكان قد تحصَّن ببلد حصين، وعليه سورٌ مكين، ويحيط به خندقٌ عميق، ويُسمى البلد بردشير، فبعث إليه أرسلان مقدِّمتَه، وسار خلفها، وخرج قاروت بك من البلد، فلقي المُقدِّمة، وفيها الحاجبان الطباش وجاولي، والتقَوا، فقُتِل بينهم عددٌ كبير، وجاءت رايات صاحب مصر على والدته وأخيه، فضمَّها إلى قصره، وكان في العسكر أميرٌ تركيٌّ يقال له: سلطان الجيوش، فاستمالوه بولاية تِنِّيس ودمياط وأعمالها، وولي سنان الدولة أماكن، وفرَّقوا البلاد في المقدَّمين خوفاً من ابن

(١) الخَرْبُشت: الخيمة. المعجم الذهبي ص ٢٣٥ .

حمدان، وحصل الشام في يد بدر الجمال، والصعيد في يد المغاربة، والإسكندرية في يد ابن حمدون، ودمياط وما والاها في يد سلطان الجيوش، ولم يبقَ لصاحب مصر إلَّا ما حول القاهرة وقَرُبَ منها.

وفي ذي القعدة لبس الوزير ابن جَهير خِلعةَ السلطان ألب أرسلان، وبعث بها إليه، وكانت فَرَجيةَ طميم وعمامةً مُذهَبة ومركبَ ذهب على فرس، وكتب إليه كتاباً يتضمن الشكرَ وحقدَ القائم عليه، حيث لبسها في داره، وجلس الوزيرُ ابنُ جَهير في بيت النُّوبة للهناء، وخرج إليه توقيع الخليفة، ومضمونه: لمَّا اتَّضح للسلطان الأعظم ـ وذكر ألقابه ـ لُطْفُ محلِّكَ يا فخر الدولة أبا نصر محمد بن محمد بن جَهير، وتأثُّلُ مكانِكَ، وتخصيصُكَ بشريف آراء أمير المؤمنين فيك بما تجاوزت به مراتب مَنْ تقدَّمك من أمثالك وألقابك، رأى أن يَحبوك بما يقصد به التقرب إلى الخدمة الشريفة، ومضايفة الآراء في اعتمادك بالآلاء الجسيمة، ويقابل مواقفك في الخدمة التي وضحت دلائلُها، وراقت من الأقذاء مناهلُها، ومقاصدك الرضية التي أنبَتْ عن حميد الجلال، وقطعت أطماعَ من يروم إدراك شأوِكَ من النظر أو الأمثال، مع ما في ظنِّ ذلك مما يدلُّ على جميلِ رأيه فيك، واعتدادِه بمساعيك، وقد أذِنَ أميرُ المؤمنين في ادِّراع ما يحصل لك الشرف به والبروز فيه، ويلقى ذلك بما يلائم الصواب ويضاهيه، ويُبدي الكافةُ ما لا يزال الإمام يُظهِره من تضاعف حصونك بحضرة الخليفة المعظَّمة، ووجاهةِ منزلك من الإمامة المكرَّمة، والله تعالى يُمتع أمير المؤمنين بعضد دولته التي تفرد بها في الزمان، وطال بها مناكبَ الأقران.

وفي يوم السبت عاشر ذي القعدة جمع أبو سعيد القايِني الناس على طبقاتهم إلى المدرسة النظامية، وكان نظام الملك بناها برسم أبي إسحاق الشيرازي، فلمَّا تكاملوا فيها تأخَّر مجيءُ أبي إسحاق، وطُلِبَ فلم يظهر، فوقع العدول إلى أبي نصر بن الصباغ الشاهد، وضمن له أبو منصور بن يوسف أن لا يعدل عنه، فركن إلى قوله، وذكر الدرس، وتفرَّق الناس، وخجل ابنُ الصباغ لتأخُّر أبي إسحاق، وأجرى المتفقِّهة لكلِّ واحد منهم أربعة أرطال خبز في كل يوم، وظهر أبو إسحاق في مسجده بباب المراتب، فدرَّس على عادته فيه، واجتمع إليه العوامُّ، ودعَوا له وأثنوا عليه، وكان قد بلغهم عنه أنه قال: إنني لم أطِبْ

نفساً بالجلوس في هذه المدرسة لما بلغني عن آلَتِها، وأنَّ أبا سعيد القايِني غصب أكثرها، ونقض قطعة من البلد لأجلها، ولحِقَ أصحابَ أبي إسحاق قصورٌ، وبان فيهم فتورٌ، وراسلوه بما عرضوا فيه بالانصراف عنهم، والمضيِّ إلى ابن الصباغ إن لم تُجِب وترجِعْ عن الأخلاق الشرسة، فأجابهم تطييباً لقلوبهم، وتسكيناً لنفورهم، وغيظاً من ابن الصباغ، حيث جلس في موضعه، وسعى هو وهم حتى صرَفَ ابن الصباغ، وكان نظام الملك لمَّا بلغه امتناعه من التدريس فيها أقام القيامة على عميد القايِني، وكتب يلومه ويوبِّخه ويتهدَّده، ويقول: لمن بنَيتَ هذه المدرسة إلا لأبي إسحاق؟! فجاء إليه أبو سعيد، وأراه الكتاب، فلم يُجِبْ، فمضى إلى بيت النُّوبة، وراسل الخليفةَ، فبعث إلى أبي إسحاق يقول: قد عرفتَ حالنا مع الأعاجم، وأخافُ أن يُنسَبَ ذلك إليَّ. فجاء أبو إسحاق وبيده آجُرَّةٌ كبيرةٌ كان يجلس عليها إذا قعد في المدرسة، وجلس بها يوم السبت غُرَّة ذي الحجة، وكان إذا حضر وقت صلاة خرج منها وصلى في بعض المساجد، فكانت مدةُ مقام ابن الصباغ فيها عشرين يوماً.

وقال أبو علي المقدسي: رأيتُ أبا إسحاق الشيرازي بعد موته في النوم، فقلت له: ما فعل اللهُ بك؟ فقال: طُولِبتُ بهذه المبنية ـ يعني المدرسة النظامية ـ ولولا أني ما أدَّيتُ فيها الفرض لكنتُ من الهالكين[1].

وفي ذي القعدة قُتِلَ الصُّليحي أميرُ اليمن بالمَهْجَم، قتله سعيد ولد نجاح أحد أمرائها المتقدِّمين، وأُقيمت الدعوة العباسية باليمن، وقُطعت الخطبة المصرية، وورد بذلك كتاب من مكة ـ حرسها الله تعالى ـ معلماً لحضرة الوزارة، ومهنياً بالدولة الإمامية القائمية لِما فتح اللهُ من إقامة الدعوة على منابر اليمن فيما قَرُبَ وما بَعُدَ، وذلك لأنه لمَّا كان في رابع عشر ذي القعدة ورد إلى مكة مَنْ أخبر أن سعيد بن نجاح كان أبوه والياً على اليمن، وأنه خرج هذا الزمان في عصابة من الخيزُرانية[2] بزَبيدٍ فاستولى عليها، وأنه سار إلى الصُّليحي في عدد يسير، وكان الصُّليحي قد عزم على الحجِّ فبلغه وهو بالمَهْجَم، فبعث بنعيم الصَّيمري في عسكر كبير، فحذَّرهم قتالَ

(١) الخبر بنحوه في المنتظم ١٦/ ١٠٢ـ١٠٣ .

(٢) في (خ): الحيزانية، والمثبت من (ف).

الصُّليحي، وخوَّفهم بأسه، فخرجوا إليه في سبع مئة راجل وخمسة عشر فارساً، وسار بعدهم الصُّليحي فالتقوا، فكبا به فرسُه، فوقع وقُتِلَ رجالُه، وأُخذت أموالُه وحرمُه، وأصبح عِظةً للمعتبرين.

وفيها تُوفِّي

سعيد بن محمد بن الحسن[١]

أبو القاسم، إمام جامع صور، من رواياته عن الحسن البصري أنه قال: لا تشتروا مودَّة ألف رجل بعداوة رجل واحد.

[وفيها تُوفِّي]

علي بن الخَضِر بن أبي الحسن[٢]

العثماني، الدمشقي، الحاسب، له تصانيف في علم الحساب، وكانت وفاته بدمشق في شوال، وكان أخوه قد مات بتِنِّيس، فقال يرثيه: [من الخفيف]

قُرَّة العينِ لم تدَعْ لي قرارا ... كنتَ جاري فصِرْتَ للتُّربِ جارا
كنتَ لي مؤنساً فأوحشني مِنْـ ... ـكَ زمانٌ مسترجِعٌ ما استعارا
في دمشقَ بعضي وبعضي بتِنِّيـ ... ـسٍ بَنَوا فوقَهُ من التُّربِ دارا
يا بعيدَ المزارِ ليتَ خيالاً ... منكَ في النَّومِ لو ألَمَّ فزارا
إن تكُنْ ذُقْتَ من غَصَّةِ الموْ ... تِ فقد ذُقْتُها عليكَ مرارا
جعلَ اللهُ ظلمةَ القبرِ نوراً ... لكَ والجنةَ الفسيحةَ دارا

السنة الستون والأربع مئة

فيها في ربيع الأول وردت الأخبار بنزولِ السلطان على حيرة، ودخولِ نظام الملك إلى فضلون بن أبي الأسوار صاحبها وإخراجِه، حتى داس بساط السلطان، وخلع عليه وعاد إلى بلده، وخدم السلطان بألف جمل، وخمسين فرساً، وخمس مئة ثوب من

(١) تاريخ دمشق ٢١/ ٢٨٧ـ٢٩٠.
(٢) تاريخ دمشق ٤١/ ٤٥٩-٤٦١.